

وفي رسالة الهناء هذه التي نجلوها لرواد الأدب الملائي في عيده الأثني^(١) يقرر لنا شيخ المرة كيف يتحول الطبع الإنساني من الكذب إلى الصدق ، ويسلك في تقريره مثل ذلك النسق الفريد المتدع الذي سلكه في فصوله وغاياته ، فيتمثل صاحبه وقد انشقت له لجج البحار بإذن الله ، كما انشقت من قبل لرسى الكليم ، ثم يتمثل دهشة الأسماك — حينئذ — مما حدث ، ويتخيل حيطان البحر وهي تتحدث متعجبة متطلعة إلى تعرف أمم ذلك الشيخ العظيم الذي تمت على يديه المعجزة ، مضاعفة لصاحبه الثناء ، داعية له بطول البقاء ، وموصول السعادة والهناء ، مبهجة إلى الله أن يجزل له في عطائه ومكافأته ، في دنياه وآخرته ، جزاء ما أسلف للناس من مكرمات ، وأسدى إليهم من حسنات

فإذا انتهى شيخ المرة من هذا التمهيد ، راح بصف في براعته النادرة ، وألمعته الساخرة ، كيف تأذن القدرة الإلهية أن تحمد نيران الكذب ، ومتى تريح العالم من طيبه المستمر ، الذي لا يُبقي ولا يَذَر

ولكنه يبني آماله البعيدة على مقدمات تسبقها ، وهي في قدرة الله هيمنة ، وإن كانت في طاقة البشر مستحيلة التحقيق فهو إذا شاء — سبحانه — أمر اللجج الملاح ، فأصبحت عدلاً سائفاً حلو المذاق ، وانقلبت ملوحتها المفرطة في الحرارة شهيداً مفرطاً في اللذاذة والحلاوة

وهو إذا شاء — سبحانه — جعل السفينة تمشي على اليابسة ، وتصبح قيساً متوهجاً من السنن والنور ، كأنما قُبِيس لتوه من شعلة من النار ملتهبة . وليس هذا بالمطلب البعيد المنال ، متى أُذن من أبداع الأكوام على غير مثال

وهو إذا شاء — سبحانه — أمر الريح أن تحمل السفينة وأن تطير بها في أجواز الفضاء ، كما حملت عرش « بلقيس » في غابر الزمان ، فإن القياس بجوِّز وقوعه ورضاه ، والقدرة تُقرُّ حدوته ولا تأباه

ولو شاء — سبحانه — جعل أسماك البحر وحيثانه آمنتات بمنمات ، في رغد من العيش هائئات ، يتهادين في ذرا الجبال الشاخات ، ويمرحن في أرجائها الفسيحة منطلقات ، ويمجرين

(١) ولد أبو الملاء يوم الجمعة عند مغيب الشمس ، ثلاثين من شهر ربيع الأول سنة ٥٣٦٣ هـ بمرة النعمان ، وتوفي ليلة الجمعة ثالث ربيع الأول سنة ٥٤٤٩ هـ .

على هامش العيد الأثني

لأبي العلاء

بقلم صديقه الأستاذ كامل كيلاني

[وهي صفحة من مقدمته التحليلية لرسالة الهناء ، إحدى رسائل المرى المخطوطة . وستظهر للناس مشروحة مضبوطة بقلم الأستاذ عما نليل]

القدرة الإلهية

يرى أستاذنا الجليل « أبو العلاء » — فيما يراه — أن قدرة الله ، سبحانه ، لا يمجزها شيء ؛ فاليسبب « مستعبد » — بمشيئته — بعد اصفراره ، وشبابه وخضرته ، مسترد — بعد مواته — حياته ونضرتة

والنيران اللتهبة متنجس لطيها — بأمره — مياهاً سائلة ، والطبيعة الإنسانية متحولة — بإذنه — من الغدر إلى الوفاء . والأغنام متفيرة طبايمها — بحكمه — مستبدلة بضعفها قوة ، وباستخدامها إقداماً وعزيمة ، متخيرة من عربن السباع سكناً تأوى إليه وقر فيه

وهكذا يسترسل أبو العلاء في خياله البارع ، وأسلوبه الساخر الفياض بالدعابة القاسية والتهكم اللاذع ، والسخنط المرير ، فيثبت لنا بما أفناه من طرائق إثباته المبدعة أن الطبيعة الإنسانية لا سبيل إلى استقامتها واستوائها ، إلا إذا تغيرت طبائع الأشياء كلها ، وانقلبت حقائق الكون الثابتة ، فدبت الحياة في المهشم ، وتحولت النار ماء ، والأغنام المستضمة سباعاً ضارية

وإلى القارى النص الملائي الذي فصلناه :

« إذا أذن ربنا اخضر الدين (اليس) »

وتبجست — بالماء الإرين^(١) (النيران)

ووفي لقرينه ، القرن ، وراحت الساجسية (وهي ضرب من القم) وماواها المرين ...

وذلك — من القدرة — ليس ببديع ا

(١) جمع إرة ، وجمعها على وجهين — كما يقول المرى — إن شئت أن تحمله مثل الزبدن (يراو في الرغز وياء في النصب والحفض) . وإن شئت أن تحمله نونه مثل نون مسكين ، تجرى عليها الامراب

في جنباتها مسرعات ، كما تجرى أسراب النعام في واسع الغلوات ،
زرافات وجماعات .

وهنا يتمثل « أبو العلاء » صاحبه - وقد تم له المراد ، وبلغ
من غايته ما أراد - ويتمثل القدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء
ممتنع في المقول ، وقد أذنت لياه البحر أن تعود إليه ، وأعلنت
كلماتها بأن ينصلح ما فسد من الزمان ، ويستقيم ما اعوج من
طبع الإنسان ، وتنطق نيران الإنك والبهتان

ومتى تحققت هذه الخوارق والمعجزات ، انتصر الصدق
على الأكاذيب والترهات ، فلترقب مع شيخنا المعري هذه
النتائج الباهرات ، فلسنا يائسين من الفوز والظفر ، والعاقة لمن
تألى وصبر

امل الكثيرين من قراء « ابن الرومي » يذكرون - بهذه
المناسبة - أسلوبه البارع في سخريته من الوزير « أبي الصقر »
حين ولي الديوان ، وعجب خصومه من تلك الطفرة ، وكيف
تظاهر « ابن الرومي » باستنكار ما تخيله من دهشهم فقرر لهم
معانباتاً ساخطة أن ظفروه بذلك المنصب ليس أعجب من ظفروه
بالانتساب إلى أميرة « شيبان » العربية الكريمة مع أنه من
الأعجم ، ولكن الحظ السعيد يصنع الأعاجيب ، والقدرة
الإلهية تفعل ما تشاء من الترائب ، ثم ختم دعابته القاسية بقوله :
إن للحظ كيمياء ، إذا ما مس كلباً أحاله إنساناً
يفعل الله ما يشاء ، كما شاء ، متى شاء كأنك ما كانا
وللمعري في هذه الرسالة مثل ما له في غيرها من منثور
ومنظومه : فنون معجبة في وصف ما تبدعه القدرة من تصور
الأماني والأحلام ، وبعث الهواجس والأوهام ، شخصاً يادية
للعيان ، ماثلة في الخلد والجنان

وهو لا يفتأ يتمثل جميع الكائنات ، من جماد وحيوان
ونبات ، وكواكب وسيارات ، وحروف هجائية وكلمات ، وقواف
وحركات ، وأصفار وأعداد وأرقام مضروبات ومقسومات ،
كأنما هي أناسي مثلنا ، موفورة الإحساس بالحياة ، تألم مثل
ما تألم ، وتتناجى كما تتناجى ، ويبرض لها كما تمرض لنا - ألوان
من الأماني والرغبات ، تستجر بينها ضروب الفتن والمدرات
وتملن في منطق - هو على خفائه عنا - بليغ فصيح ، رائع
التقديس والتسبيح ، يتهل بسادق الدعوات ، في التدوات
والآصال والروحات ، لخالق الأرضين ومبدع السموات

فلا غرو إذا رأيناها يتمثل - في هذه الرسالة - طريقاً
ضيقاً يبتهل إلى خالفه أن يجزى صاحب « المعري » أحسن
الجزاء مكافأة له على ما بذل من صالح المعنى ، ويتجه الدرب
إلى الله أن يبدل من شعابه الضيقة ، مسالك وطرقاً نسيجة
الرحاب ، تندو - لفرط سمها - كأنها الصحارى والسباب ،
لا تضيق بالعدد الأوفر من الجيوش الحاشدة والمواكب . وأن
تبدل أحجار الأكمة الخشنة ، فتصبح بمد خشونتها ناعمة ،
كأنها للاستها رق نعام

ثم يهادى في خياله فيتمثل القدرة الإلهية قد بدلت لصاحبه
أحجار التلال موائد حافلة بلذائد الأطمعة والأثرية ، يصيب
منها الجائع ويرتوي الظمان كما شاء ، لا يتكبد في ذلك مشقة
ولا عناء

وللمعري - في غير هذه الرسالة أيضاً - من روائع الصور
الفنية التي يتمثل فيها من عجائب القدرة الإلهية ، ما لا تتسع له
هذه الإلمامة الموجزة ، فلنجزئ من ذلك بوجازة خاطفة ،
تاركين التفصيل لفرصة أخرى ، فهو يقول في فصوله :

« يقدر الله على المستحيلات : رد الفانت ، وجمع الجسمين
في مكان ، وما لا تحتمله الأبواب ، إذ كان لا ينسب إلى عجز
أو انتقاص . فإذا صررت بعود بال ، فاعلم أن الله يستطيع أن
يكسوه أخضر كخضرة الحسام ، حتى يورق ورقاً ، كمدد
الرمال ، ويقفد على كل ورقة ورقاء (حمامة) تمبده بالحن
معبديات (منسوبة إلى « مبدع » الفنى المعروف) » أو يقول :

وفي قدرة الخالق أن يجعل الراحة (بطن اليد) ذات ذوائب ،
والهامية (الرأس) كفتاور اللجين (خوان الفضة) وأن يجرى
الفضة من الفجاج « أو يقول : « والله - بقدرته - بطير ذوات
الأخفاف »

ثم يسمح الخيال بأبي العلاء . فيستيق الأجيال ، حتى يتمثل
عصرنا الحاضر : عصر السرعة الخاطفة وما يتلوه من عصور ،
متنبها بما كشفه العلم وما لم يرح الستر عنه إلى اليوم ، فيقول :

« إن شاء المليك قرب النازح وطواه ، حتى يطوف
الرجل - في الليلة الدانية بياض الشفق من حمرة الفجر^(١)
طوفه بالكعبة حزل « قاف » (وهو - فيما تقول الأساطير
جبل محيط بالأرض) ، ثم يؤوب إلى فراشه والليلة ما همت
بالإسحار »

(١) يعني في الليلة القصيرة التي يترب نهاية شفقها من بداية فجرها